محاضرة بعنوان

"ثورة 1919: منعطف في مسار الحركة الوطنية المصرية الحديثة"

اعداد

م.د. حاتم احمد عويد

جامعة الموصل / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم التاريخ

المقدمة:

تحتل ثورة 1919 مكانة بارزة في تاريخ مصر الحديث، فهي أول حركة جماهيرية شاملة التفَّ فيها الشعب المصري بمختلف فئاته الاجتماعية والدينية ضد الاحتلال البريطاني. اندلعت الثورة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، حيث شهدت مصر أوضاعًا سياسية واقتصادية صعبة نتيجة استغلال بريطانيا لمواردها وفرضها الحماية عليها منذ عام 1914. ولم تقتصر الثورة على الطبقة السياسية أو النخب المثقفة، بل شارك فيها الفلاحون والعمال والطلاب والنساء والأقباط، لتجسد لأول مرة وحدة وطنية واسعة النطاق بين مختلف مكونات المجتمع المصري.

وقد مثَّل نفي سعد زغلول ورفاقه في مارس 1919 الشرارة المباشرة لانطلاق موجات الغضب الشعبي، لتتحول المظاهرات من القاهرة إلى الأقاليم في صورة عصيان مدني واسع النطاق أربك سلطات الاحتلال. وعلى الرغم من القمع الشديد الذي مارسته القوات البريطانية، إلا أن الثورة نجحت في فرض قضية الاستقلال على جدول أعمال السياسة الدولية، وأجبرت بريطانيا على إعادة النظر في سياساتها تجاه مصر.

تكمن أهمية ثورة 1919 في أنها لم تكن مجرد احتجاج عابر، بل مثلت تحولًا نوعيًا في مسيرة الحركة الوطنية المصرية. فقد أظهرت قدرة الشعب على تنظيم نفسه ومقاومة الاستعمار بأساليب حديثة نسبياً، وأسست لمرحلة جديدة من النضال السياسي انتهت بإلغاء الحماية البريطانية وإعلان استقلال مصر عام 1922، ثم صدور دستور 1923 الذي مهّد لتجربة سياسية دستورية رغم ما شابها من قيود. كما كان للثورة دور كبير في إبراز دور المرأة المصرية في الحياة العامة، وتعميق مفهوم الوحدة الوطنية، وترسيخ فكرة المشاركة الشعبية في تقرير المصير.

تمهيد للأسباب:

عندما اندلعت ثورة 1919 لم تأتِ من فراغ، بل كانت حصيلة تراكم طويل من السياسات الاستعمارية والضغوط الاقتصادية والاجتماعية التي عانى منها المصريون منذ الاحتلال البريطاني عام 1882. ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تضاعفت معاناة الشعب نتيجة فرض الأحكام العرفية، ومصادرة الموارد الزراعية والصناعية لصالح المجهود الحربي، إضافة إلى التجنيد القسري في فرق العمال. وبعد انتهاء الحرب، وجد المصريون أن وعود بريطانيا بالحرية والاستقلال قد تبخرت، بل إن نفي سعد زغلول ورفاقه كان القشة التي قصمت ظهر البعير. وهكذا اجتمعت العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتشكل وقودًا انفجر في صورة ثورة شعبية غير مسبوقة.

الأسباب:

يمكن النظر إلى ثورة 1919 بوصفها ثمرة طبيعية لتفاعل جملة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تراكمت عبر عقود من الاحتلال البريطاني لمصر. فمن الناحية السياسية، ظل الشعب المصري يعاني من غياب السيادة الوطنية منذ الاحتلال عام 1882، وتفاقم هذا الوضع مع إعلان الحماية البريطانية سنة 1914 عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى، الأمر الذي ألغى فعليًا أي مظهر من مظاهر الاستقلال. وعندما حاولت النخبة السياسية المتمثلة في سعد زغلول ورفاقه نقل المطالب الوطنية إلى مؤتمر الصلح في باريس، اصطدمت برفض بريطاني قاطع، بل ذهبت سلطات الاحتلال إلى حد نفي سعد ورفاقه في مارس 1919، مما فجّر الغضب الشعبي وأشعل الشرارة الأولى للثورة.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد أرهقت الحرب العالمية الأولى مصر، حيث استنزفت بريطانيا مواردها الزراعية والصناعية لدعم المجهود الحربي، وفرضت التجنيد القسري على آلاف الفلاحين للعمل في جبهات بعيدة، وهو ما ترك آثارًا سلبية على الاقتصاد المحلي وأدى إلى تدهور مستويات المعيشة وارتفاع الأسعار بصورة غير مسبوقة. وقد ولد هذا الوضع شعورًا عامًا بالظلم دفع الطبقات الوسطى والدنيا إلى الانخراط في الحراك الثوري.

وعلى الصعيد الاجتماعي والفكري، أسهم انتشار التعليم وازدهار الصحافة الوطنية في رفع مستوى الوعي القومي، وتهيئة المجتمع لفكرة المواجهة مع الاحتلال. كما لعبت الطبقة الوسطى، وخاصة الطلاب والموظفين، دورًا بارزًا في تحريك الشارع. ومن الجدير بالذكر أن المرأة المصرية شاركت للمرة الأولى في المظاهرات، ما أضفى على الثورة طابعًا اجتماعيًا شاملاً ووسع من قاعدة المشاركة الشعبية.

وهكذا تضافرت هذه العوامل الثلاثة لتخلق مناخًا ثوريًا متفجرًا، عبر فيه المصريون عن رفضهم المطلق لاستمرار الاحتلال، وطالبوا بالاستقلال الوطني الكامل، مما جعل ثورة 1919 محطة مفصلية في تاريخ مصر الحديث.

الأحداث:

بدأت الشرارة الأولى لثورة 1919 يوم 9 مارس 1919، حين أقدمت سلطات الاحتلال البريطاني على اعتقال سعد زغلول ورفاقه من زعماء حزب الوفد، ثم نفيهم إلى جزيرة مالطا. أثار هذا القرار غضبًا شعبيًا واسعًا، فخرجت المظاهرات في القاهرة ثم سرعان ما امتدت إلى مختلف مدن الأقاليم. لم تكن هذه المظاهرات محدودة أو عفوية، بل تميزت بطابعها الجماهيري الشامل، حيث شارك فيها الطلاب، والموظفون، والعمال، والفلاحون، والنساء، وحتى رجال الدين من المسلمين والأقباط، في مشهد غير مسبوق جسّد وحدة الشعب المصري.

في القاهرة، تحولت شوارع العاصمة إلى مسرح للمواجهات اليومية بين المتظاهرين والقوات البريطانية، حيث أضرب طلاب المدارس والجامعة، وامتنع الموظفون عن الذهاب إلى أعمالهم، وشُلت حركة المواصلات نتيجة الإضرابات. لم يقتصر الأمر على المظاهرات السلمية، بل ظهرت أشكال من المقاومة تمثلت في قطع خطوط السكك الحديدية وإتلاف وسائل الاتصال لإرباك الإدارة البريطانية.

وفي الأقاليم، خاصة في الوجه القبلي، كان الطابع أكثر عنفًا نتيجة قرب الفلاحين من المعاناة المباشرة التي فرضها الاحتلال. فقد هاجم الأهالي مراكز الشرطة، وقطعوا السكك الحديدية التي كانت تنقل الجنود البريطانيين والإمدادات، واندلعت مواجهات مسلحة بين القوات البريطانية والفلاحين في بعض القرى. وردّت سلطات الاحتلال بوحشية شديدة، حيث قصفت قرى بكاملها بالمدفعية، وأحرقت البيوت، وارتكبت عمليات قتل جماعي بحق المدنيين، في محاولة لبث الرعب وإخماد الانتفاضة.

وكان من أبرز سمات الثورة مشاركة المرأة المصرية لأول مرة بشكل جماهيري منظم. فقد خرجت سيدات مصريات بقيادة صفية زغلول وهدى شعراوي في مظاهرات ضخمة، رفعن فيها الشعارات الوطنية وطالبن بجلاء الاحتلال. وقد أثارت هذه المشاركة اهتمامًا محليًا ودوليًا، وأظهرت أن الوعي الوطني قد تجاوز القيود التقليدية المفروضة على أدوار النساء في المجتمع.

استمرت موجات الثورة بين مارس ويوليو 1919 على شكل مظاهرات، إضرابات، وأعمال مقاومة، ورغم القمع البريطاني الذي أسفر عن آلاف القتلى والجرحى، فإن الحركة الشعبية لم تهدأ إلا بعد أن اضطرت بريطانيا إلى الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه في أبريل 1920، والسماح لهم بالسفر إلى مؤتمر

الصلح في باريس لعرض قضية الاستقلال. ورغم أن المؤتمر لم يحقق النتائج المرجوة بسبب المصالح الدولية المتشابكة، إلا أن الثورة أرغمت بريطانيا على إرسال لجنة ملنر في أواخر عام 1919 للتحقيق في أسباب الاضطرابات، وهو ما مهّد الطريق لاحقًا للاعتراف باستقلال مصر الشكلي عام 1922.

وهكذا يمكن القول إن ثورة 1919 لم تكن مجرد احتجاج محدود، بل حركة وطنية شاملة قلبت موازين القوى، وأكدت لبريطانيا وللعالم أن مصر لم تعد تقبل استمرار الاحتلال، وأنها قادرة على تنظيم مقاومة جماهيرية واسعة تضع قضيتها في صدارة الاهتمام الدولي.

النتائج:

أفرزت ثورة 1919 جملة من النتائج العميقة التي انعكست على الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في مصر، وأسست لمرحلة جديدة من التاريخ الوطني.

أولًا: النتائج السياسية:

أبرز ما حققته الثورة هو إجبار بريطانيا على إعادة النظر في سياستها تجاه مصر. فعلى الرغم من القمع الوحشي الذي مارسته سلطات الاحتلال، فإن اتساع رقعة الثورة ومشاركة جميع فئات المجتمع المصري جعلت من المستحيل تجاهل المطالب الوطنية. وأمام الضغط الشعبي، اضطرت بريطانيا إلى الإفراج عن سعد زغلول ورفاقه في أبريل 1920، كما أرسلت لجنة ملنر للتحقيق في أسباب الثورة والبحث في مستقبل العلاقات المصرية البريطانية. ورغم تعثر المفاوضات، إلا أن الثورة أرغمت بريطانيا في نهاية المطاف على الاعتراف باستقلال مصر "الشكلي" في فبراير 1922، وإلغاء الحماية المفروضة منذ عام 1914. وقد مثّل ذلك خطوة أولى على طريق بناء الدولة الوطنية الحديثة، وإن ظل الاستقلال منقوصًا لاحتفاظ بريطانيا بامتيازات واسعة في قناة السويس والسودان وشؤون الدفاع والسياسة الخارجية. كما أدى إعلان الاستقلال إلى صدور دستور 1923، الذي أسس لحياة نيابية رغم ما شابها من صراعات بين القصر والأحزاب.

ثانيًا: النتائج الاجتماعية:

من النتائج البارزة للثورة أنها جسّدت وحدة الشعب المصري بمسلميه وأقباطه، فالمظاهرات رفعت شعار "الدين لله والوطن للجميع"، وتقدّم رجال الدين من الأزهر والكنيسة صفوف الحركة الوطنية، وهو ما عزز الشعور بالهوية الوطنية الجامعة. كما كانت مشاركة المرأة المصرية حدثًا تاريخيًا بارزًا، إذ خرجت النساء للمرة الأولى في مظاهرات عامة بقيادة صفية زغلول وهدى شعراوي، وبرز دورهن كقوة اجتماعية

مؤثرة في الساحة الوطنية. كذلك، وسّعت الثورة قاعدة المشاركة السياسية لتشمل الفلاحين والعمال والطلاب، بعد أن كان النشاط السياسي في مصر حكرًا على النخب والأعيان.

ثالثًا: النتائج الفكرية والثقافية:

رسخت ثورة 1919 الوعي القومي ودفعت إلى انتشار الأفكار الوطنية في الأدب والفن والصحافة. فقد تحولت الأغاني والقصائد إلى أدوات تعبئة شعبية، وكان شعار "يحيا الهلال مع الصليب" رمزًا لروح الوحدة. كما عززت الثورة من مكانة الصحافة الوطنية التي لعبت دورًا رئيسًا في توجيه الرأي العام. وأسهمت التجربة الثورية في تنمية ثقافة المقاومة السياسية السلمية عبر المظاهرات والإضرابات، وأكدت أن الشعب المصري قادر على انتزاع حقوقه بالضغط الشعبي.

رابعًا: النتائج السلبية والقيود:

مع ذلك، لم تحقق الثورة كامل أهدافها. فاستقلال 1922 جاء منقوصًا، وبقيت السيادة البريطانية مهيمنة على جوانب حيوية من السياسة المصرية. كما أن الصراع بين القصر والوفد والإنجليز لاحقًا كشف أن الثورة لم تنهِ التناقضات الداخلية، بل تركت مساحة كبيرة للتجاذبات السياسية التي طبعت الحياة المصرية في العقود التالية.

الخاتمة:

تشكل ثورة 1919 نقطة تحول كبرى في تاريخ مصر الحديث، إذ جاءت نتيجة تراكم طويل من السياسات الاستعمارية البريطانية والضغوط الاقتصادية والاجتماعية التي عاشها المصريون منذ أواخر القرن التاسع عشر. وقد ساهمت الأحداث في إبراز الإرادة الشعبية حين اندلعت الثورة بمشاركة جميع فئات المجتمع، رجالاً ونساءً، مسلمين وأقباطًا، عمالاً وفلاحين وطلابًا، في مشهد نادر من الوحدة الوطنية. وعلى الرغم من القمع البريطاني الشديد، فإن المصريين تمكنوا من فرض قضيتهم على الساحة الدولية، ما أدى إلى إلغاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلال مصر في عام 1922، وإن كان استقلالًا منقوصًا.

لقد أبرزت الثورة ثلاثة أبعاد رئيسة: الأول هو الوعي السياسي المتنامي الذي دفع الشعب إلى الانتقال من مرحلة الاحتجاج المحدود إلى الثورة الشاملة؛ والثاني هو الوحدة الوطنية التي تلاشت فيها الفوارق الدينية والاجتماعية؛ والثالث هو ترسيخ تقاليد جديدة في العمل السياسي، مثل الإضراب والمظاهرة والمشاركة الشعبية. ومن هنا، فإن ثورة 1919 لا تُعد حدثًا عابرًا في سجل مصر، بل هي مدرسة في

الوطنية، ومرجع أساسي لفهم تطور الحركة القومية المصرية التي استمرت حتى تحقيق الجلاء التام في منتصف القرن العشرين.

قائمة المصادر:

- عبد الرحمن الرافعي، ثورة 1919: تاريخ مصر القومي من 1914 إلى 1921، القاهرة: دار المعارف، 1987.
- عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية: تاريخ مصر القومي من 1921 إلى 1923، القاهرة: دار المعارف، 1990.
- طارق البشري، الحركة السياسية في مصر 1945–1952، القاهرة: دار الشروق، 1983. (يتضمن تحليلًا لجذور ثورة 1919).
- يونان لبيب رزق، ثورة 1919: رؤية جديدة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
- رؤوف عباس، تاريخ مصر الاجتماعي في القرن التاسع عشر، القاهرة: دار الشروق، 1992.
- عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية المصرية 1919–1936، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977.
- حسين فوزي النجار، النظام السياسي المصري منذ 1919، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1966.
- أحمد عزت عبد الكريم، النهضة المصرية الحديثة 1798–1882، القاهرة: دار الفكر العربي، 1969. (للخلفية التاريخية السابقة للثورة).
- عبد الخالق لاشين، الحركة الوطنية المصرية من الاحتلال إلى ثورة 1919، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1980.
- عاصم الدسوقي، مصر بين الاحتلال والثورة: دراسة في جذور ثورة 1919، القاهرة: دار النهضة العربية، 1985.
- عبد العظيم أنيس، الوفد والمجتمع المصري 1919–1952، القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1982.
- لطيفة سالم، سعد زغلول وثورة 1919، القاهرة: دار الهلال، 1992.
- محمد صبري، تاريخ مصر من الاحتلال إلى الثورة، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2001.
- جمال بدوي، نساء ثائرات في ثورة 1919، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.
- عبد العزيز الشناوي، الأحزاب السياسية في مصر 1907–1952، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1978.